تحرير موضع النزاع

بعد تحديد المواقع أو الهويات ، وتحديد المفاهيم المتنازع عليها ، وتحديد المعايير التى يحتكم إليها ، يأتى الأساس الرابع للحوار ، وهو : تحرير موضع النزاع أو الخلاف بين الفريقين : فريق الإسلاميين ، وفريق العلمانيين .

وأعتقد أن من السهل تحديد مواضع الخلاف ، بعد تحديد القضايا الثلاث ، التى أسلفنا الحديث عنها : المواقع ، والمفاهيم ، والمعايير . كما يمكننا تحديد نقاط الاتفاق - أيضًا ، إن صح الاتجاه ، وصدقت العزائم .

نحن متفقون على ضرورة النهوض بأوطاننا ، والعمل بأقصى طاقاتنا لتنميتها تنمية شاملة ، واستخدام أحدث ما وصل إليه العلم والتكنولوجيا فى العالم المعاصر ، والاستفادة من كل جديد نافع ، وكل قديم صالح ، والوقوف فى وجه الجمود والتحجر فى العلم ، والفكر ، والأدب ، والصناعة ، وتجديد الحياة مادية ومعنوية ، بكل ما يرقى بها وينميها ويطورها .

ومتفقون على ضرورة الإيمان بالله واليوم الآخر ، وأن حاجة الأمة إلى زكاة الأنفس ، وصلاح الضمائر ، واستقامة الأخلاق حاجة أساسية ، كحاجتها إلى الغذاء اليومى .

ومتفقون على الاعتزاز بالإسلام ، باعتباره دين الأغلبية ، واحترام الأديان السماوية لغير المسلمين ، وأن الإسلام للمواطنين منهم ثقافة وحضارة ، وإن لم يكن دينًا وعقيدة .

ومتفقون على إقامة نظام سياسى يحقق الشورى ، التى أقام عليها الإسلام قاعدة الحكومة الإسلامية ، وعلى إقرار كل الضمانات ، التى هيأتها الديمقراطية الحديثة للمحافظة على حق الشعوب فى اختيار حكامها ومراقبتهم ومحاسبتهم ، وتغييرهم إن ساءوا ؛ من دساتير مكتوبة مفصلة ، وانتخابات حرة نزيهة ، وصحافة لا تستطيع الحكومة إغلاقها ، ومعارضة قادرة على أن تنصح وتنقد ، بلا خوف من الحاكم وأعوانه .

ومتفقون على إقامة نظام اقتصادى يحقق زيادة الإنتاج ، وعدالة التوزيع ، وترشيد الاستهلاك ، وسلامة التداول ، يعنى بحماية الضعفاء من الأقوياء ، وحقوق الفقراء لدى الأغنياء ، ويقيم تكافلاً اجتماعيًا ، يجعل الأمة كالبنيان المرصوص .

ومتفقون على ضرورة توفير الأمن لكل إنسان فى وطننا ، بحيث لا يخاف على نفسه أو أهله وماله ، أو أى حرمة من حرماته ، وتوفير الحرية له ، دينية أو سياسية أو فكرية أو مدنية ، بما لا يهدم القيم السائدة ، والأصول العامة المتفق عليها فى مجتمعنا .

ومتفقون على ضرورة تحرير أوطاننا من كل تبعية أجنبية ، غربية كانت أم شرقية ، عسكرية ، أو اقتصادية ، أو سياسية ، أو ثقافية .

ومتفقون على رفض « الدولة الدينية » بالمفهوم ، الذى عرفه الغرب فى العصور الوسطى ، الدولة التى تعادى العلم باسم الدين ، وتقف مع الطغيان ضد الحرية ، ومع الملوك ضد الشعب ، وتزعم أنها تمثل فى الأرض سلطان الله فى السماء ! ولكننا مع هذا كله نختلف فى أمور أساسية ، وقضايا جوهرية ، يجب أن نجليها ، وخصوصًا فيما يحدّد العلاقة بين العِلمانية والإِسلام .

* * *

العلمانية والإسلام

العلمانية - بالمفهوم الذى شرحناه - لا تقف من الإسلام موقفًا محايدًا . ولا يمكن أن تكون « محايدة » كما زعم بعض العلمانيين العرب . فهذا بالنسبة للإسلام مستحيل .

إن الإسلام يواجهها بشموله لكل جوانب الحياة الإنسانية : مادية ومعنوية ، فردية واجتماعية ، وهى لا تسلم له بهذا الشمول ، فلامفر من الصدام بينهما .

إن النصرانية قد تقبل قسمة الحياة والإنسان شطرين : شطر للدين ، وشطر للدولة ، أو بتعبير الإنجيل : شطر لله وشطر لقيصر ، فتعطى ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ! أما الإسلام ، فيرى الحياة وحدة لا تتجزأ ، ويرى الإنسان كيانًا واحدًا لا ينفصم ، ويرى أن الله هو رب الحياة كلها ، ورب الإنسان كله ، فلا يقبل قيصر شريكًا لله ، فلله ما فى السموات وما فى الأرض ، ومن فى السموات ومن فى الأرض ، وقيصر وما لقيصر ، كله لله ! فلا يجوز أن يستولى على جزء من الحياة ، ويوجهها ، بعيدًا عن هدى الله .

إن الإسلام يأبى إلا أن يوجه الحياة كلها بأحكامه ووصاياه ، وأن يصبغها بصبغته ، وهى صبغة الله ، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ﴾ (١) ، ويضفى عليها من روحه الصافية ، وهى روح ربانية الغاية ، أخلاقية المنزع ، إنسانية المضمون .

ولا يقبل الإسلام إلا أن يصحب الإنسان - بتوجيهه وتشريعه - فى رحلة الحياة منذ أن يولد ، وإلى أن يموت ، بل قبل أن يولد ، وبعد أن يموت (٢) .

ولا يرضى الإسلام أن يكون فى الحياة فضلة لا عمدة ، وأن يكون له منها الهامش لا الصلب ، وأن يكون لغيره القيادة ، وعليه الطاعة والاتباع !

إن طبيعة الإسلام أن يكون قائدًا لا مقودًا ، وسيدًا لا مسودًا ؛ لأنه كلمة الله ، «وكلمة الله هى العليا » ولهذا فهو « يعلو ولا يعلى » .

---

(١) البقرة : ١٣٨ .

(٢) لأن هناك أحكامًا وتوجيهات ، تتعلق بالجنين فى بطن أمه ، وأخرى تتعلق بالميت بعد وفاته ، مثل غسله وتكفينه والصلاة عليه .. إلخ ، انظر فصل : « الشمول » من كتابنا «الخصائص العامة للإسلام » .

والعلمانية تريد من الإسلام أن يكون تابعًا لها ، يأتمر بأمرها ، وينتهى بنهيها ، لا أن يأخَذ موقعه الطبيعى والمنطقى والتاريخى ، آمرًا ناهيًا ، حاكمًا هاديًا .

إنها تباركه وترضى عنه ، إذا بقى محصورًا فى الموالد والمآتم ، فى دنيا الدراويش والمجاذيب ، فى عالم الخرافة والأساطير ، أما أن يتحرك ويحرك ، ويوجه الشباب، ويقود الجماهير ، ويفجر الطاقات ، ويضىء العقول ، ويلهب المشاعر ، ويصنع الأبطال ، ويربى الرجال ، ويضبط مسيرة المجتمع بالحق ، ويقيم بين الناس الموازين القسط ، ويوجه التشريع والثقافة والتربية والإعلام ، ويعلم الناس أن يدعوا إلى الخير ، ويأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، ويقاوموا الانحراف والفساد . . . ، فهذا ما لا ترضى عنه العلمانية بحال .

تريد العلمانية من الإسلام أن يقنع بركن أو زاوية له فى بعض جوانب الحياة ، لا يتجاوزها ولا يتعداها ، وهذا تفضل منها عليه ؛ لأن الأصل أن تكون الحياة كلها لها ، بلا مزاحم أو شريك !

فعلى الإسلام أن يقنع « بالحديث الدينى » فى الإذاعة أو فى التلفاز !

وأن يقنع « بالصفحة الدينية » فى الصحيفة يوم الجمعة .

وأن يقنع « بحصة التربية الدينية » فى برامج التعليم العام .

وأن يقنع « بقانون الأحوال الشخصية » فى قوانين الدولة .

وأن يقنع « بالمسجد » فى مؤسسات المجتمع .

وأن يقنع « بوزارة الأوقاف » فى أجهزة الحكومة .

عليه أن يقنع بذلك ، ولا يمد عينيه إلى ما هو أكثر من ذلك ، بل عليه أن يزجى من الشكر أجزله للعلمانية ، التى أتاحت له أن يطل برأسه من هذه النوافذ ، أو تلك الزوايا !

والإسلام - بطبيعته - يرفض أن يكون له مجرد ركن فى الحياة ، وهو موجه الحياة وصانعها . يرفض أن يكون مجرد ضيف على العلمانية ، وهو صاحب الدار !

من هنا يصطدم الإسلام بالعلمانية ، ولابد ، فى أكثر من مجال ، يصطدم بها فى كل شعبة من شعب تعاليمه الأربع الرئيسية : العقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والتشريع .

* * *

العلمانية والعقيدة

العلمانية لا تجحد الجانب العقدى فى الإسلام ، ولا تنكر على الناس أن يؤمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ، انطلاقًا من مبدأ مسلم به عندها ، وهو تقرير الحرية الدينية لكل إنسان . فهذا حق من حقوقه ، أقرته المواثيق الدولية ، ومضت عليه الدساتير الحديثة .

ولكن الإسلام فى داره « دار الإسلام » ، لا يكتفى بأن تكون عقيدته مجرد شىء مسموح به ، وليس محظورًا كالمخدرات والسموم البيضاء .

إنه يريد أن تكون عقيدته روح الحياة ، وجوهر الوجود ، وملهم أبناء المجتمع ، وأن تكون أساس التكوين النفسى والفكرى لأفراد الأمة ، وبعبارة أخرى ، تكون محور التربية والثقافة ، والفن والإعلام ، والتشريع والتقاليد ، فى المجتمع كله .

إن الإسلام يغرس فى نفس الطفل ، منذ نعومة أظفاره ، عقيدة التوحيد ، التى تحرر الإنسان من العبودية لكل ما سوى الله ؛ من العبودية للطبيعة ، والعبودية للحيوان ، والعبودية للجن ، والعبودية للبشر ، والعبودية للحجر ، والعبودية لهوى النفس ، والعبودية لأى طاغوت ، عبده الناس من دون الله ، وإفراد الله تعالى بالعبادة له ، والاستعانة به ، وحده ، لا شريك له . كما تعلم ذلك سورة الفاتحة ، التى يقرأها المسلم فى كل صلاة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) .

بل إن المسلم منذ يولد له طفل ، ذكرًا أو أنثى ، مطالب أن يؤذن فى أذنه اليمنى ، أى يسمعه كلمة التكبير « الله أكبر . . . الله أكبر » وكلمة التوحيد : «أشهد أن لا إله إلا الله » ، وكلمة الرسالة : « وأشهد أن محمدًا رسول الله » ، وإن لم يكن المولود يعى ذلك ، ولكن لذلك إيحاؤه ودلالته فى المستقبل ، حين يعلم أن أول كلمة طرقت سمعه ، هى كلمة التوحيد .

---

(١) الفاتحة : ٥ .

كما يعلم أن آخر كلمة يسمعها المسلم ، وهو على فراش الموت هى كلمة التوحيد - أيضًا .

فهو يستقبل الحياة بالتوحيد ، ويودع الحياة بالتوحيد ، وهو ما بين الاستقبال والوداع ، يعيش لرسالة التوحيد ، ملتزمًا بها ، وداعيًا إليها .

إن التوحيد - الذى هو جوهر الإسلام - ليس مجرد كلمة تقال ، أو شهادة تعلن : إنه اتجاه فكرى ، ونفسى ، وخلقى ، وعملى ، يفرض على المسلم : ألا يبغى غير الله ربا ، ولا يتخذ غير الله وليا ، ولا يبتغى غير الله حكمًا .

وهو - بهذا - أساس الحرية الحقيقية ، إذ لا حرية لمجتمع اتخذ بعضه بعضًا أربابًا من دون الله ، سواء كان هؤلاء الأرباب من رجال الملك ، مثل فرعون ، الذى قال للناس : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ أم من رجال الدين ، الذين حرموا على الناس ما شاءوا ، وحللوا لهم ما شاءوا ، دون إذن من الله تعالى . كما قال القرآن عن أهل الكتاب : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ (١) .

وسواء أعلن هؤلاء المؤلهون هذه الربوبية للبشر بألسنتهم وأقوالهم ، أم أعلنوها بممارساتهم وأعمالهم ، كما هو الغالب ، فالنتيجة واحدة ، وهو استعباد البشر للبشر .

ولهذا كانت رسائل النبى ﷺ إلى قيصر وغيره من ملوك الأرض ، تختم بهذه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدُ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللهِ ﴾(٢) .

وعرف ذلك المسلمون الأوائل ، فقال ربعى بن عامر (رضى الله عنه) ، لرستم قائد الفرس : « إن الله ابتعثنا ، لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . . . » .

---

(١) التوبة : ٣١ .

(٢) آل عمران : ٦٤ .

والتوحيد - كذلك - أساس الإخاء الحقيقى بين البشر ، فالأرباب لا يؤاخون العبيد ، إنما يتآخى العباد أمام رب العباد .

وقد كان من دعاء النبى ﷺ ، دبر كل صلاة ، كما رواه أحمد وأبو داود : «اللهم ربنا ، ورب كل شىء ومليكه ، أنا شهيد أنك الله ، وحدك لا شريك لك . اللهم ربنا ، ورب كل شىء ومليكه ، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك . اللهم ربنا ، ورب كل شىء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » .

وبهذا وضع الأخوة فى المرتبة التالية للشهادتين ؛ لأنها ثمرة لهما .

والتوحيد - كذلك - أساس المساواة الحقيقية بين البشر ، فإن المتألهين فى الأرض ، لا يتساوون بمن يؤلهونهم ، وينحنون لهم خاشعين .

أما عقيدة التوحيد ، فتسوى بين الناس جميعًا ، باعتبار عبوديتهم لرب واحد ، إلى جوار بنوتهم لأب واحد . وقد أعلن النبى ﷺ ذلك فى حجة الوداع ، على رؤوس الأشهاد ، وقال : « يا أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى ، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

حتى النبى ﷺ نفسه ، لم يرفع نفسه عن مرتبة العبودية قيد شعرة ، فهو «عبد الله ورسوله » ليس إلهًا ، ولا نصف إله ، ولا ثلث إله ، بل خاطبه الله تعالى بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ (٢) . وحذر أمته من الغلو ، الذى سقط فى هوته أصحاب الأديان السابقة ، فقال : « لا تطرونى ، كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، ولكن قولوا : عبد الله ورسوله » متفق عليه .

هذه العقيدة - عقيدة التوحيد - وما تفرع عنها من الإيمان بتنزيه الله تعالى عن كل نقص ، ووصفه بكل كمال ، ومن الإيمان بملائكته ، وكتبه ورسله ،واليوم الآخر ، يجب أن تكون الملهم الأول ، والموجه الأول ، للحياة الإسلامية .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) الكهف : ١١٠ .

فالمجتمع المسلم ، مجتمع عقيدة وفكرة ، وليس مجتمعًا سائبًا ، وعقيدته وفكرته هى الإسلام ، فيجب أن تصبغ الحياة به ﴿ صِبْغَةَ اللهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (١) .

إن وضع العقيدة الإسلامية فى المجتمع المسلم ، يجب ألا تكون دون وضع العقيدة الماركسية فى المجتمع الشيوعى ، فهو يراها أساس فلسفته الثقافية ، والاجتماعية ، والسياسية .

ولا يقبل فى مجتمع مسلم ، أن يكون الإسلام - وهو فى قلب داره وعز سلطانه - مجرد شىء مأذون فيه ، لا غبار على من آمن به ، كما لا حرج على من تركه . فالدين لله والوطن للجميع ، كما قالوا !

ومن ناحية أخرى ، نرى العلمانية - وإن قبلت عقيدة الإسلام نظريًا أو كلاميا - ترفض ما تستلزمه العقيدة من معتنقيها ، وما توجبه على أبنائها إيجابًا حتمًا ، بمقتضى الإيمان . وذلك بيّن واضح فى أمرين أساسيين :

أولهما : رفضها اتخاذ العقيدة أساسًا للانتماء والولاء ، فهى لا تقيم للرابطة الدينية وزنًا ، بل تقدم عليها رابطة الدم والعنصر ، ورابطة التراب والطين ، وأى رابطة أخرى .

وهذا مناقض تمامًا لتوجيه القرآن ، الذى يقيم الأخوّة على أساس الإيمان والعقيدة ، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٢) ، ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (٣) .

ويجعل ولاء المؤمن - قبل كل شىء - لله ورسوله وجماعة المؤمنين ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٤) .

ويلغى كل رابطة مهما يكن قربها وقوتها ، إذا تعارضت مع رابطة الإيمان ، حتى

---

(١) البقرة : ١٣٨ .
(٢) الحجرات : ١٠ .
(٣) آل عمران : ١٠٣ .
(٤) المائدة : ٥٥ ، ٥٦ .

رابطة الأبوة والبنوة والأخوة . يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) ، ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (٢) .

ويضرب القرآن مثلاً بأبى الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) ، الذى برىء من أبيه ، حين تبين له أنه عدو الله تعالى ، وكذلك موقفه هو والذين آمنوا معه ، من قومهم حين كفروا بالله وحادوه ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ (٣) .

كذلك قال الله تعالى لنوح عن ابنه من صلبه ، لما تمرد على ربه : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ (٤) .

ويحذر المؤمنين من اتخاذ أعداء الله أولياء فى آيات كثيرة ، ويشدد فى ذلك ، حتى يكاد يعتبره ردة عن دين الله ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (٥) ويقول بعدها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٦) .

ولا يرخص فى شىء من ذلك ، إلا فى حالة الضعف ، التى لا تجد فيها جماعة المؤمنين بدًا من إظهار التقية للكافرين ، وذلك استثناء من القاعدة العامة . يقول القرآن : ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٧) .

---

(١) التوبة : ٢٣ . (٢) المجادلة : ٢٢ . (٣) الممتحنة : ٤ . (٤) هود : ٤٦ .
(٥) المائدة : ٥١ . (٦) المائدة : ٥٤ . (٧) آل عمران : ٢٨ .

والآية تدل على أن الولاية تعنى الانتصار لهم والوقوف فى صفهم ، من دون المؤمنين ، وليس المراد المودة القلبية ، فلو كان هذا المراد ، ما رخص فيه ؛ لأن الضعيف يمكنه أن يضمر الكراهية والبغضاء فى قلبه ، ولا يطلع عليه أحد ،

والأمر الثانى : أن العلمانية ترفض ما توجبه العقيدة الإسلامية على أبنائها ، من النزول على حكم الله ورسوله ، والتسليم لهما ، دون تردد أو حرج .

وهذا هو موجب الإيمان ، ومقتضى الإلتزام بعقد الإسلام ، وهو ما نطق به القرآن فى بيان محكم صريح ، لا لبس فيه ولا تشابه .

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُّبِينًا ﴾ (١) .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

فالعقيدة الإسلامية تفرض على المسلم أن يكيف حياته ، وفقًا للأحكام التى تجسدها ، وأن يتجلى أثرها فى سلوكه وعلاقاته كلها ، سواء كان حاكمًا أم محكومًا .

والعلمانية تريد من العقيدة أن تظل حبيسة الضمير ، لا تخوض معترك الحياة ، ولا تؤثر فى أهدافها ومناهجها ، فإن سمح لها بالظهور ، فليكن بين جدران المسجد ، لا تخرج عنها ، على أن يكون المسجد نفسه تحت سلطانها .

---

(١) الأحزاب : ٣٦ .　　(٢) النور : ٥١ .　　(٣) النساء : ٦٥ .

وبهذا ، نرى المسلم الذى يعيش تحت سلطان العلمانية ، يعانى من التناقض بين العقيدة ، التى يؤمن بها ، والواقع ، الذى يفرض عليه ، فعقيدته تشرق ، وواقعه يغرب . . عقيدته تحرم ، والعلمانية تبيح . . عقيدته تلزم ، والعلمانية تعارض ، وهكذا ، لا تعايش بين الإسلام الحقيقى والعلمانية الحقيقية ؛ فهما كالضرتين ، إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، أو ككفتى الميزان لا ترجح إحداهما إلا بمقدار ما تحت الأخرى .

* * *

العلمانية والعبادة

والعلمانية قد لا ترفض الإسلام ، باعتباره عبادة وشعائر ، يتقرب بها الإنسان إلى ربه ، بناء على أن ذلك جزء من الحرية الدينية . ولكنها لا تجعل لهذه العبادة أهميتها ، باعتبارها غاية الحياة ، والمهمة الأولى للإنسان ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) . ولا تقيم نظامها التربوى والثقافى والإعلامى على غرس هذا المعنى ، وتثبيته ، وتعهده ، حتى يؤتى أكله .

ولا تنظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية تنظيمًا ، ييسر على المسلم أداء عبادته ، بغير عوائق ، ولا ضغوط ، بحيث لا تتعارض أنظمة العمل والدراسة وغيرها ، ومواقيتها مع مواقيت العبادة المفروضة .

وهى لا تجعل للالتزام بفرائض العبادات ، أو إهمالها ، مكانًا فى تقديم الناس وتأخيرهم ، وخصوصًا عند الترشيح لمناصب القيادة ، وجلائل الأعمال ، على أساس مقولة خاطئة : هى التفرقة بين السلوك الشخصى والسلوك الاجتماعى للإنسان ، وهو ما لا يقول به الإسلام .

وهى - كذلك - لا ترى المجاهرة بترك العبادات ، التى هى أركان الإسلام العملية ، شيئًا يوجب المحاسبة أو المؤاخذة ، بله العقوبة ، التى أجمع عليها فقهاء الإسلام ، فيمن يصر على ترك الصلاة ، أو منع الزكاة ، أو إفطار رمضان ، حتى أنهم اتفقوا على تكفير من ترك شيئًا منها ، استخفافًا بحرمتها ، أو إنكارًا لفرضيتها ، لإنكاره ما هو معلوم من الدين بالضرورة .

وهى كذلك لا تعتبر الزكاة - التى هى الركن المالى الاجتماعى من أركان الإسلام - جزءًا من نظامها المالى والاقتصادى والاجتماعى ، تؤخذ من الأغنياء ، لترد على الفقراء بوساطة « العاملين عنها » ، بل تعتبرها عبادة شخصية ، من شاء أداها ، وعليه عبء الضرائب الوضعية كاملاً . ومن شاء أعرض عنها ، ولا حرج عليه ، ولا ملامة !

* * *

(١) الذاريات : ٥٦ .

العلمانية والأخلاق

ذلك هو موقف العلمانية من العقيدة ، ومن العبادة فى الإسلام ، فما موقفها من الأخلاق ، التى جاء بها الإسلام ؟

ربما يبدو لأول وهلة أن العلمانية لا اعتراض لها على الجانب الأخلاقى فى الإسلام ، بل لعلها ترحب به ، وتدعو إليه ، باعتبار أن الأخلاق هى قوام المجتمعات ، وعماد النهضات ، وأن الإنسان ، الذى هو محور التقدم ، وصانع التنمية ، ومنشىء الحضارة ، إنما تبنيه الأخلاق والفضائل الإنسانية الرفيعة . ولم ينل بيت شعر قاله شاعر فى عصرنا ، ما ناله بيت شوقى الشهير :

وإنما الأمم الأخـــــلاق ما بقيـــــت فإن همو ، ذهبت أخلاقهم ، ذهبوا !

هذا ما لا خلاف عليه - على وجه العموم - بين الإسلام والعلمانية .

ولكن عند التأمل والتحقيق ، نجد بينهما خلافًا أكيدًا فى موضعين :

أولاً : فى مجال العلاقة بين الجنسين ، حيث تتميز الأخلاق الإسلامية هنا ، عن أخلاقيات الحضارة الغربية ، التى يتبع سننها العلمانيون ، شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع .

فالإسلام - وإن كان لا يصادر هذه الغريزة ولا يعطلها ، أو يعتبرها فى ذاتها قذارة ورجسًا - يصر على تصريفها فى نطاق الزواج المشروع ، الذى به يجد كل من الزوجين السكينة والمودة والرحمة ، وبهذا تتكون الأسرة ، التى هى نواة المجتمع الراقى .

ويحرم الإسلام أى اتصال جنسى ، خارج هذه الدائرة ، ويعتبره من الزنى أو الشذوذ ، الذى يجلب سخط الله تعالى ، ويشيع الانحلال والفساد فى المجتمع ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (١) .

---

(١) الإسراء : ٣٢ .

كما يحرم الإسلام كل الوسائل ، التى تيسر وقوع الفاحشة ، أو تغرس بها ، أو تجرىء عليها . ولهذا يربى المؤمنين والمؤمنات على العفاف ، والإحصان ، وغض البصر ، كما يوجب على المسلمة التزام الحشمة ، والوقار ؛ فى الزى ، والكلام والمشى ، والحركة ، ﴿ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ (١) ، ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، ﴿ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ . . . ﴾(٢) .

كما حرم الإسلام خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية عنه ، وحرم عليها السفر وحدها بغير زوج ، ولا محرم ، وخصوصًا مع عدم الأمن .

هذه الأحكام والتوجيهات الإسلامية ، لا ترحب بها العلمانية المستغربة ، ولا ترى أن تقيد المجتمع ، الذى تحكمه ، بقيودها ، وأن تدع الحبل على الغارب للجنسين ، ليتصرفا كما يحلو لهما ، بناء على أن ذلك يدخل فى نطاق الحرية الشخصية .

وهذا الموضوع من المحكّات الأساسية ، التى تصطرع فيها العلمانية والإسلام . فالإسلام يغلق - بقوة - الأبواب ، التى تهب منها رياح الفتنة ، من الأغنية الخليعة ، والصورة المثيرة ، والقصة المكشوفة ، والأزياء المغرية ، ويقاوم كل ألوان التبرج والإثارة ، والخلوة غير المشروعة . . . ، ويجتهد فى حل مشكلات الزواج ، وإزاحة العوائق من طريقه ، حتى يستغنى الناس بالحلال عن الحرام .

والعلمانية لا تنظر للأمر على أنه مشكلة تتطلب حلاً ، ولا ترى حرجًا من إتاحة الفرص لاستمتاع أحد الجنسين بالآخر ، كما تفعل المجتمعات المتقدمة اليوم ! وتنظر لموقف الإسلام هنا ، على أنه موقف متزمت متشنج ، وللدعاة الإسلاميين ، على أنهم قوم « معقدون » يضخمون مسألة العلاقة الجنسية ، ويعطونها من المساحة ، أكثر مما ينبغى .

والإسلاميون لا ذنب لهم ، إلا أنهم يحلون ما أحل الله ، ويحرمون ما حرم

---

(١) الأحزاب : ٣٢ .

(٢) النور : ٣١ .

الله ، ويوجبون ما أوجب الله ، ويقررون ما شرع الله ، وهل يسع مسلمًا صحيح الإسلام ، إلا هذا الموقف ؟!

والموضع الثانى : أنهم لا يحبون أن يربطوا الأخلاق بالدين ، وإنما يريدون أن يقيموها على أساس فلسفى أو عملى ، بعيدًا عن الدين ، وترغيبه وترهيبه ، . «فالأخلاق الدينية » عندهم فى موضع الاتهام ، أما « الأخلاق المدنية » فهى أقوم قيلا ، وأهدى سبيلاً [1] .

* * *

(١) قال هذا - بوضوح - الأستاذ خالد محمد خالد ، فى فترة اتجاهه إلى العلمانية ، فى كتابه « لكيلا تحرثوا فى البحر » ، وقد رجع عما كتبه عن « قومية الحكم » فى كتابه « من هنا نبدأ » ، ونرجو أن يصحح ما كتبه عن الأخلاق - أيضًا وهو لذلك أهل ، غفر الله لنا وله .

العلمانية والشريعة

أما الجانب الذى تقف العلمانية ضده ، من تعاليم الإسلام ، بصراحة وقوة ، فهو الشريعة ، أعنى الجانب التشريعى أو القانونى فى الإسلام .

وقد يتساهل بعض العلمانيين ، فيدعون للإسلام التشريع المتعلق بالأسرة ، أو ما يسمى « الأحوال الشخصية » من الزواج ، والطلاق ، والميراث ، ونحوها ، على اعتبار أن هذه متعلقة بالحرية الدينية ، أو الشخصية للإنسان . وهم حين يصنعون ذلك ، يعتبرونه منة منهم ، على الإسلام .

فالعلمانية الأصلية ، لا تسمح للإسلام بأى مساحة فى التشريع ، ولو كان ذلك فى الأحوال الشخصية ، فالدين مكانه - عندها - الضمير ، أو المسجد - فحسب .

وقد رأينا علمانية « أتاتورك » ، وهى أم العلمانيات فى البلاد الإسلامية ، تطرد التشريع الإسلامى فى كل المجالات ، حتى فى الأحوال الشخصية ، لهذا حرمت الطلاق ، وتعدد الزوجات ، وسوت بين الأبناء والبنات فى الميراث ، مخالفة بذلك قطعيات الشريعة ، وما علم من الدين بالضرورة .

وفى بعض البلاد العربية فى الشمال الأفريقى ، رأينا بعض العلمانيات الحاكمة ، تقلد العلمانية « الأتاتوركية » فى الزواج والطلاق ، وأوشكت أن تقلده فى قانون الميراث ، لولا ضغط الرأى العام .

ترى العلمانية أن التشريع للمجتمع من حقها هى ، وليس من حق الإسلام أن يحكم ويشرع ، ويحلل ويحرم ، أى أنها تغتصب حق التشريع المطلق من الله الخالق ، وتعطيه للإنسان المخلوق .

والعلمانية بهذا تجعل الإنسان ندًا لله ، الذى خلقه ، بل هى - بهذا - تعلى كلمة الإنسان ، على كلمة الله جل جلاله ، فهى تمنحه من السلطة والاختصاص ، ما تسلبه من الله سبحانه ، وبهذا يصبح الإنسان « ربا » يحكم بما يريد ، ويأمر بما شاء .

قد تعترف العلمانية لله فى هذا الكون ، بالخلق ، ولا تعترف له بالأمر ، والإسلام يقوم على أنّ لله الخلق والأمر جميعًا : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وإذا تسامحت العلمانية ، واعترفت لله بحق التشريع ، فإننا نجدها تعطى الإنسان حق النسخ لما شرع الله ، بدعاوى باطلة ما أنزل الله بها من سلطان . فهى تحل ما حرم الله ، وتحرم ما أحل الله ، وتسقط ما فرض الله ، وتعطل ما شرع الله .

إنها - فى قرارة نفسها - لا تقدر الله حق قدره ، حين تستبعد أن يحيط الله تعالى شأنه ، بما يحدث للبشر ، برغم تغير الزمان ، وتبدل المكان ، وتطور الإنسان ، وأن يشرع لهم من الأحكام ، ويضع لهم من القواعد ، ما يصلح لهم ، ويصلحهم ويرقى بهم ، أفرادًا وجماعات ، وإن مضى عليه أربعة عشر قرنًا من الزمان .

والإسلام يقوم على عقيدة راسخة ، بأن الله العظيم ، لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عن علمه شيء ، فى السموات ولا فى الأرض ، وأن الماضى والحاضر والمستقبل بالنسبة له سواء ، فهو يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون . ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ ولا أَكْبَرَ إلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

إن « الشريعة » هى العدو الأول للعلمانيين فى البلاد الإسلامية ؛ لأنها هى التى تنقل الإسلام من عالم النظريات والمثاليات إلى دنيا الواقع والتنفيذ . وهى التى تهيء للمجتمع سياجًا من القوانين ، يحميه من عدوان العادين ، وهى التى تردع من لم يرتدع بوازع الإيمان ، كما قال الخليفة الثالث : « إن الله ليزع بالسلطان ، ما لا يزع بالقرآن » .

وأشد ما تكون عداوة العلمانيين للشريعة ، فيما كان مضادًا لاتجاه الحضارة

---

(١) الأعراف : ٥٤ .

(٢) يونس : ٦١ .

الغربية ، وفلسفتها فى التشريع ، والنظرة إلى الفرد والمجتمع ؛ وذلك مثل : تحريم الربا فى القانون المدنى ، أو تحريم الزنى والسُّكر فى القانون الجنائى ، أو تحديد الجزاء على الجرائم ، بعقوبات بدنية ؛ مثل : الجلد ، والقطع ، ونحو ذلك .

إن العِلمانية تقبل القانون الوضعى ، الذى ليس له فى أرضنا تاريخ ولا جذور ولا قبول عام ، وترفض الشريعة ، التى تدين أغلبية الأمة بربانيتها ، وعدالتها ، وكمالها ، وخلودها ، وتحس بالإثم والقلق ، إذا أعرضت عن أحكامها ، وترى أنها مهددة بعقاب الله فى الدنيا والآخرة .

* * *